

المحور الخامس

الكشوفات الجغرافية في افريقيا و بداية التوغل الاوربي

مقدمة:

بالرغم من ان قارة افريقيا تعد من قارات العالم القديم ،فان الكشوف الجغرافية التي جاءت بها متأخرة بل وكانت تعرف بالقارة المظلمة (Dark Continent) وذلك لان المعرفة الجغرافية لها اقتصرت على المناطق الساحلية بينما بقيت المناطق الداخلية غير معروفة حتى اواخر القرن التاسع عشر بل اوائل القرن العشرين .

أولاً: معيقات اكتشاف افريقيا:

وكان تأخر كشف افريقيا الداخلية راجعا لعدة عوامل جغرافية حالت دون ذلك و ابرزها العوائق الطبيعية التي تتمثل في الصحراء الكبرى وفي طبيعة انهار القارة التي لم تسهم بدور كبير في الكشف عن مجاهلها ،فنهـر النيل مثلا لم يسمح بالتوغل نحو الجنوب ابعـد من اسوان لاعتراض الجنادل لمجراه واعاققتها الملاحة حتى الخرطوم ،كما انه الى الجنوب من الخرطوم تشكل السدود في نطاق بحر الجبل عائقا اخر.

كذلك فان الانهار الرئيسة الاخرى في القارة لم تخل من عوائق حالت دون استخدامها في الكشوف الجغرافية ابرزها المساقط المائية كما هي الحال قرب مصب نهر الكونغو ووجود الغابات والمستنقعات التي يصعب اختراقها كما في دلتا النيجر ،ويضاف الى ذلك الظروف المناخية القاسية في افريقيا المدارية لا سيما على ساحل غانا الذي وصف يوما ما بانه (مقبرة الرجل الابيض).

وفضلا عن العقبات الطبيعية كانت هناك عوامل اخرى اخرت من نشاط الكشوف الجغرافية في القارة مثل العداء الذي كان يضمـره السكان الاصليون للرجل الابيض بصفة عامة بسبب الحملات التي كان يشنها تجار الرقيق الاوربيون لاصطياد الزنوج في مدة تجارة الرقيق التي ابتليت بها افريقيا المدارية ،كذلك فان عصر الكشوف لم تتوفر به الوسائل الحديثة للنقل او التبريد او الادوية والاغذية المحفوظة التي يعرفها العالم اليوم ،وقد جعل ذلك كله جهود المستكشفين والرحالة ضربا من ضروب المخاطر آنذاك.

ثانياً: الكشوف القديمة للقارة

عرف المصريون القدامى معظم حوض النيل وسواحل البحر الاحمر حتى اثيوبيا ،لكن وقفت الصحراء الكبرى حائلا امام توغلهم نحو الغرب كما كانت سدود اعلاي النيل حائلا دون التوغل نحو الجنوب ،وارسلوا بعثات اتجهت نحو جنوب البحر الاحمر كما نظموا رحلة في عهد الملك نخاو(سنة 600 قبل الميلاد) للدوران حول قارة افريقيا ابتداء من البحر الاحمر ونجحت في ذلك وعادت بعد ثلاث سنوات عن طريق مضيق جبل طارق.

والى الغرب من مصر وعلى امتداد سواحل البحر المتوسط نشط الاغريق في معرفة الساحل لا سيما من طرابلس حتى طنجة ، وحوالي سنة 500 ق.م. رحل الملاح القرطاجي الفينيقي هانو Hanno الى ساحل غرب افريقيا حتى نهر السنغال .

وفي القرنين الاول والثاني الميلادي نشط الرومان في كشف بعض مناطق شمال افريقيا ولكن لم يضيفوا كثيرا من المعارف عن داخل القارة ، فقد ارسل الامبراطور نيرون بعثتين لكشف منابع النيل (سنتي 54 و68 ميلادية) ولكنهما لم يصلا الى ابعد من منطقة السودان في الغالب . وقد اوضح بطليموس في خريطته عن العالم (51 ميلادية) بعض المظاهر عن نهر النيل حيث اظهر النيل الازرق ينبع من بحيرة في اثيوبيا والمنبع الرئيس للنيل من جبال القمر في مكان ما من افريقيا الاستوائية .

الرحالة العرب

بدأ الفتح العربي لنشر الاسلام في افريقيا في القرن السابع الميلادي حيث اتجهت جحافل المسلمين نحو شمال افريقيا بادئة بمصر سنة 641 م ثم وصلت الى شمال غرب القارة وغزت اسبانيا في سنة 711م فضلا عن ذلك فقد امتد نفوذ العرب ومؤثراتهم الثقافية الى ساحل شرق افريقيا لمسافة بعيدة نحو الجنوب حتى زنجبار ومصب نهر الزمبيزي .

ومن ابرز الجغرافيين العرب الذين اسهموا في الكشف الجغرافي لقارة افريقيا المسعودي (القرن العاشر الميلادي) والادريسي (القرن الثاني عشر) وابن بطوطة (القرن الرابع عشر) وكانت ابرز جهودهم انهم كانوا اول من ارتاد بعض المناطق الداخلية في افريقيا.

ويعد ابن بطوطة واحدا من اعظم الرحالة العرب ، فقد ابحر سنة 1330 من عدن على امتداد ساحل شرق افريقيا وزار بربرة ومقديشو ومباسا وكلوة ، الا ان اهم رحلات ابن بطوطة كانت في غرب افريقيا حيث بدأ رحلته من مدينة فاس سنة 1351 وعبر جبال اطلس واخترق الصحراء الكبرى ونجح في الوصول الى مملكة مالي ثم سافر بعد ذلك الى تمبكتو وجاوا سنة 1353 واعتقد ان نهر النيجر يتصل بأعالي نهر النيل، ومن جاوا عاد عبر الصحراء الى مدينة فاس في مراكش.

ثالثا: البرتغاليون في القرن الخامس عشر

وصل البحارة الى الساحل الغربي لأفريقيا في المدة من سنة 1430 الى سنة 1500 ، وابتعدوا جنوبا حتى الكاب ومنه الى المحيط الهندي ، وكان الدافع الرئيس وراء ذلك هو ايجاد طريق نحو الشرق الاقصى يحل محل الطريق البري عبر اراضي الإمبراطورية العثمانية الاسلامية . وقد وجد البرتغاليون صعوبات في سبيل ذلك ابرزها التيارات البحرية والضباب على ساحل الصحراء الكبرى الجاف . ولكنهم استطاعوا في سنة 1434 ان يصلوا الى كيب بوجادور (مقابل جزر كناري) كما تمكنوا تحت قيادة الامير هنري الملاح ان يصلوا الى سيراليون سنة 1461 ثم الى جزيرة فرناندوبو سنة 1472.

وانشا البرتغاليون على الساحل الشرقي للقارة محطات تجارية كانت في الواقع اول نقاط الالتقاء التجاري بين غرب افريقيا واوروبا وقامت هذه المحطات بعد ذلك بدور رئيس في تجميع الرقيق من القارة تمهيدا لتصديره الى امريكا.

ووصل ديبجو كاو Diego Cao الى مصب نهر الكونغو في سنة 1484 ،وفي سنة 1486 قام باتلميو دياز Barthelomeu Diaz برحلة ناجحة الى المحيط الهندي وكان ذلك اول من اوصل البرتغاليين اليه وكانت رحلته فريدة آنذاك .لانه لم يبحر موازيا للساحل بل اتجه نحو المحيط الاطلسي الجنوبي .

ثم جاء بعد ذل فاسكودي غاما Vasco de Gama سنة 1497 والذي يعد اول من وصل الى الهند عن طريق راس الرجاء الصالح، فقد بدأ رحلته متخذا طريقه نحو الجنوب فالجنوب الشرقي من سيراليون وابحر لمد ثلاثة شهور بعيدا عن اليابس واستدار نحو الشرق ووصل الى ساحل افريقيا عند خليج سانت هيلانه شمال كيب تاون سنة 1498 ثم اتجه الى ساحل ناتال ثم الى خليج دلاجورا وميناء ماليندي في موزمبيق ومنها ابحر نحو الهند.

رابعاً: مرحلة الركود الكشفي فيما بين سنتي 1788-1500

تميزت السنوات التي اعقبت فاسكو دي غاما بركود حركة الكشوف الجغرافية في افريقيا، ومع ذلك بدأت دول اوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا في منافسة البرتغاليين بإنشاء محطات تجارية غرب افريقيا وكان عملها تجميع الافريقيين وشحنهم رقيقا الى الأمريكتين. حتى سنة 1788 عندما تأسست الجمعية الافريقية في لندن والذي كان لها الفضل في تنظيم عمليات الكشوف الجغرافية في افريقيا .

كان التقدم الكشفي في جنوب افريقيا بطيئا حيث واجهت المستعمرة الهولندية مشكلات متعددة شغلت المستوطنين وشركة الهن الشرقية الهولندية التي كانت تحكمهم. ولم يقم الهولنديين بمحاولات للكشف الجغرافي الا في سنة 1752 عندما اقلعت بعثة في الاتجاه الشرقي من مدينة الكاب وكشفت خليج موسل (Mosse) وعبرت نهر جريت فش الى منطقة تشغها قبيلة اكسوزا Xosa احدى قبائل زوج البانتو القوية الشكيمة والمحبة للحرب. وكان البحث عن الذهب من اسباب اتجاه الهولنديين نحو شمال افريقيا وكذلك العاج والنحاس الذي كان الهوتوت يستعملونه بأسلوب بدائي، وقد عبر الهولنديين الجزء الادنى من نهر الاورنج سنة 1778 التي تعف اليوم بجنوب غرب افريقيا او ناميبيا .

خامساً: مرحلة الكشوف العظمى لأفريقيا (1788-1888)

إن مرحلة الكشوف الجغرافية بدأت بإنشاء الجمعية الافريقية في لندن سنة 1788 وذلك بهدف تطوير النشاط الكشفي والمعرفة الجغرافية بالقارة ،وقد واكب ذلك الغاء تجارة الرقيق في اوائل القرن التاسع عشر وبدأ اهتمام الاوربيون بداخل القارة الافريقية وتحرك اطماعهم للسيطرة عليها وتقسيمها. وبدأ المستكشفون الاوربيون يفدون الى القارة بإعداد

قليلة زادت في منتصف القرن التاسع عشر، ثم ما لبثت الكشوف ان اصبحت عملية منظمة بعد ذلك.

وقد ارتبطت الكشوف الجغرافية في هذه المرحلة بعدة مستكشفين اسهموا في ازالة الغموض عن منابع الانهار الكبرى في القارة لا سيما نهر النيل، ونهر النيجر ونهر الكونغو وكذلك كشف وسط القارة والصحراء الكبرى. ويعد مونجو بارك Mungo Bark من اشهر الذين اسهموا في حل مشكلة منابع نهر النيجر سنة 1796 وكلابرتون Ciapperton ولاندر Lander اللذين كشفا الجزء الادنى ومصبه سنة 1830.

ويعد دافيد لفينجستون Livingstone اعظم رحالة ومستكشف عرفته افريقيا في العصر الحديث حيث بدأ نشاطه الكشفي على امتداد المدة من 1841-1873 بادئا من جنوب افريقيا وعبر وسط جنوب القارة حتى شرقها حيث اكتشف كثيرا من البحيرات واعلالي نهر الكونغو وحاول كشف اعالي نهر النيل في هضبة البحيرات لولا ان وافته المنية سنة 1873.

أما نهر النيل فقد بدأت محاولات كثيرة للوصول الى منابعه ابتداء من محاولات جيمس بروس (1769-1772) وقد ارسل محمد علي بعثات عسكرية لاختراق منطقة السودان في اقليم بحر الجبل. اما الصحراء الكبرى فقد كانت تمثل تحديا امام الكشوف الجغرافية ولكن استطاع بعض الرحالة وابرزهم هورنمان (Hornemaan) الالمانى الذي بدأ رحلته من القاهرة سنة 1798 الى سيوة ثم الى خزان حتى نهر النيجر، ورولفس (Rohlf) الذي بدأ رحلته من مراكش ثم عبر الصحراء الى نهر البنوي حتى التقائه مع النيجر ثم اتجه الى بلاد اليوروبا ووصل الى ابدان وفيها الى لاجوس وبذلك يعد اول اوربي يعبر الصحراء الكبرى من البحر المتوسط الى ساحل غانا.